دُلُّوني على سوق المدينة

تأليف

سلمان بن فهد العودة

المشرف العام على شبكة الإسلام اليوم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وسلم تسليمًا كثيرًا، وبعد[1]:

فإن هذا العصر الذي نعيشه هو عصر صراع في مجالات عدة، منها المجال الاقتصادي سواء على مستوى الدول أو الشركات والمؤسسات، وأصبحت الساحة الاقتصادية، ساحة تنافس شرس، بل حرب غير معلنة.

ولذا فالحديث عن التجارة والمال والاقتصاد له أهميته البالغة، فنحن لسنا بمعزل عن ذلك كله بل نحن جزء من هذا الصراع بشكل أو بآخر ويمكن أن ندلل على أهمية ذلك في النقاط الآتية:

(1) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيت في يوم الأحد ١٤١٣/١١/١٢هـ بالجامع الكبير في مدينة بريدة .

أولاً: هذا الاقتصاد الذي نتحدث عنه هو من أهم أسباب قيام الدول أو انهيارها، وعلى سبيل المثال فإن الدول الشيوعية التي تهاوت -كما تتهاوى أوراق الخريف- كان من أسباب سقوطها الانهيار الاقتصادي، و لم ينفعها -وقد انهار اقتصادها- أن تملك أكثر من ثلاثمئة ألف رأس نووي؛ بل أصبحت هذه الرؤوس النووية، وملايين الجنود؛ عبئًا ثقيلاً على اقتصادها ساهم في تفككها وانهيارها.

ثانيًا: إن مما يلحظه الدارسون لأوضاع المجتمعات: أن الرجل الغربي اليوم أصبح مثقلاً بالديون فكل مرتبه يصرف في سداد ذلك الدين، فدين لشراء السيارة، ودين للمنزل، ودين لأعمال خاصة يقوم بها وهكذا، بحيث يموت هذا الرجل وهو في سداد هذا الدين، وهذا من الظواهر الخطيرة التي تنذر بانهيار تلك المجتمعات الغربية.

ثالثًا: إن المسلمين اليوم هم الأغنى وهم الأفقر في الوقت نفسه**!** فبلاد الإسلام وهبها الله تعالى الخيرات الاقتصادية والثروات الطبيعية المختلفة، التي هي من مقومات الاقتصاد الغربي، والنفط ليس

إلا واحدًا منها، ومع ذلك فإن أكثر من ستين في المائة من فقراء العالم ومشرديه ولاجئيه ينتسبون إلى الرقعة الإسلامية، وذلك يدل على تقصيرهم في استثمار ما وهبهم الله تعالى من الخيرات والبركات.

رابعاً: إن المال -كما يقال - عصب الحياة، وهو سر من أسرار النجاح للفرد والجماعة والأمة. فالاقتصاد يجب أن يوظَّف لخدمة الدين والدعوة إلى الله ﷻ ،وإغناء المسلمين عن الكافرين، والإفادة مما وهبه الله تعالى لهذه البلاد، قال سفيان الثوري - رحمه الله - :"ما كانت العدة - أي المال المعد - في زمان أصلح منها في هذا الزمان"(1)، يعني: أن إعداد المال واقتناءه كان محتاجًا إليه في كل وقت، لكن في زمانه على سبيل الخصوص زادت الحاجة إليه؛ لأن به يحفظ الإنسان نفسه عن التعرض للسؤال، وإراقة ماء الوجه والحاجة إلى من بيدهم المال، فإذا كان هذا الكلام في زمان سفيان فما بالكم بوقتنا هذا الذي أصبح الاقتصاد فيه من

(1) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣٨٠).

عناصر القوة الرئيسة التي تحتاج الأمة إلى إعدادها سواء في ذلك الفرد أو الدول. ولأجل ذلك كله فإننا محتاجون إلى أن نتحدث طويلاً عن هذا الهم.

وسوف نتناول هذا الموضوع في هذه الرسالة من خلال الفصول الآتية:

الفصل الأول: سنة مأثورة.

الفصل الثاني: أثرياء من الصحابة.

الفصل الثالث: المعنى الحقيقي للزهد.

الفصل الرابع: فوائد التجارة.

الفصل الخامس: قواعد عامة.

* * *

الفصل الأول

سنة مأثورة

لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان سعد ذا غنى، فقال له سعد : إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وأنظر أيَّ زوجتي هويت فأنزل لك عنها، فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالكَ ، دلوني على السوق فخرج إلى سوق بني قينقاع فباع واشترى فربح، فجاء بشيء من سمن وأقط، ثم تابع الغدو إلى السوق فمكثنا ما شاء الله ثم جاء وعليه وضر صفرة (١).

فرأى النبي ﷺ بشاشة العرس فقال له : "مهيم"(٢) قال تزوجت امرأة من الأنصار، قال : كم أصدقتها، قال : وزن نواة من ذهب(٣)،

(١) الوضر : الأثر، والمراد بالصفرة صفرة طيب يصنع من الزعفران وغيره.

(٢) مهيم : أي ما شأنك .

(٣) لفظ النواة من الذهب : عبارة عن ما قيمته خمس دراهم من الفضة .

فقال النبي ﷺ : "بارك الله لك أولم ولو بشاة" قال عبد الرحمن : فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوتُ أن أصيب ذهباً أو فضة(١).

إنك تلحظ روح الاحتراف عند عبد الرحمن بن عوف، فهو رجل من أهل مكة من المهاجرين، ومكة كانت مركزًا تجاريًا في الجاهلية وبقيت كذلك في الإسلام، يجيء إليها العرب في المواسم في الحج والعمرة وغيرهما، فيأتون بألوان الخيرات كما قال الله تعالى ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص: ٥٧]، فكانت مكة مركزًا تجاريًا وزراعيًا على مستوى الجزيرة العربية كلها؛ ولذلك كان أهلها محترفين للتجارة وخبراءَ فيها؛ ولذلك فإن عبد الرحمن بن عوف – لأنه مكي مهاجري– لما نزل المدينة قال: "دلوني على السوق" وبخبرته نزل السوق، ولم يكُ معه مال، ولكنه ضارب، وما هي إلا أيام حتى ربح شيئًا من أقط وشيئًا من سمن، ثم بعد أيام تزوج عن غنى، فلم يكُ محتاجًا إلى لجنة خيرية، ولا إلى محسن متصدق، ولكن أغناه الله تعالى من فضله بالضرب في الأسواق،

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٤٩) وانظر الفتح (النكاح، باب الوليمة ولو بشاة).

حتى استغنى وأغنى بفضل الله ﷻ.

فأنت تلحظ حذقه في التجارة، ثم تلحظ الدعم النبوي له ولسائر المهاجرين والأنصار؛ ولذلك دعا له النبي ﷺ بالبركة، وأمره أن يولم ولو بشاة؛ ليطعم المهاجرين والأنصار من طيب الطعام، بما أفاء الله تعالى عليه من المال، ولما أنعم عليه من الزوجة.

عن عروة بن الجعد البارقي قال : عرض للنبي ﷺ جلب(١) فأعطاني ديناراً فقال : أي عروة : ائت الجلب فائتني بشاة فأتيت الجلب فساومت صاحبه شاتين بدينار، فلقيني رجل فساومني فبعته شاة بدينار وجئت بالدينار والشاة إلى رسول الله ﷺ فقال : اللهم بارك له في صفقه يمينه قال : فلقد رأيتني أقف في كناسة الكوفة فأربح أربعين ألف قبل أن أصل إلى أهلي، وكانوا يرون أنه لو اشترى التراب لربح فيه(٢). فأنت تلحظ هنا أيضًا روح

---

(1) الجلب : ما جلب من إبل وغنم ومتاع، ويطلق الجلب على الذين يجلبون الإبل والغنم للبيع.

(٢) أصله في البخاري (٣٦٤٢) وهو في المسند بسياق أكثر بسطاً وانظر الفتح المناقب، باب (٢٨).

الاحتراف عند عروة البارقي، والخبرة في التجارة، والتعرف على الأسباب، والبحث عن الفرص، ثم تلحظ الدعم النبوي للصحابة أن يكونوا أغنياء عن الناس، فقراء إلى رب الناس جل وعلا، وهذا أمر ملحوظ في حياة هذا الجيل المبارك لا تكاد تخطئه العين في أي واحد منهم.

وعلى سبيل المثال فإن **أبا بكر** ﷺ خرج تاجرًا إلى بصرى في عهد النبي ﷺ،(١)، ولم تمنعه محبة الرسول ﷺ وحب الجلوس معه من ذلك، ولا منع النبي ﷺ محبة أبي بكر والحرص على صحبته من الإذن له بالتجارة إلى بصرى.

أما **عمر** ﷺ فإن أبا موسى ﷺ لما حدثه بقول النبي ﷺ : "إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فإن أذن له وإلا فليرجع"، فطلب عمر البينة على ما قال أبو موسى، فجاءه ببعض الأنصار فشهدوا له. فقال عمر ﷺ: "خفي عليَّ هذا من أمر الرسول ﷺ، ألهاني عنه الصفق

---

(1) أخرجه أحمد (٢٦١٤٧) وابن ماجه (٣٧١٩) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، والحديث مداره على زمعة بن صالح، وهو ضعيف، ضعفه غير واحد من أهل العلم .

في الأسواق"[١]، والحقيقة أن عمر كان كثير الصحبة لرسول الله ﷺ فكان ﷺ كثيرًا ما يقول: **"ذهبت أنا وأبو بكرٍ وعُمَرُ، ودخلْتُ أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر"**[٢]، وقلما كان يترك النبي ﷺ، لكن خفيت عليه هذه السنة، فبين سبب خفائها عليه بقوله : " ألهاني عنه الصَّفْقُ في الأسواق" يعني: الشغل بالتجارة.

أما **عليّ** رضي الله عنه فقد ذكر الخلال في كتابه "الحث على التجارة": أنه كان عليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم، ثم يقول رضي الله عنه: "اشتريته بخمسة دراهم لو أربحني رجل فيه درهمًا واحدًا لبعته عليه"[٣]. فهو مستعد أن يتاجر حتى بثوبه الذي عليه لو أربحه فيه إنسان درهمًا واحدًا. هذه هي روح التجارة في مثل هؤلاء الرجال الفضلاء، وهكذا كان سائر الصحابة من المهاجرين والأنصار .

---

(1) أخرجه البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (٣٦٨٥).

(3) الحث على التجارة للخلال (٩٦)، وأخرجه الإمام أحمد في فضـــائل الصحابة (٨٨٥).

لقد قدم المهاجرون المدينة بالمئات ثم بالألوف، ورغم ذلك لم تعانِ المدينة من أزمة اقتصادية بسبب هذا العدد الكبير الذي نزل فيها، ولم تكن ثَمَّ فرص عمل مواتية، ومع ذلك لم يصبحوا عبئاً ولا عالة على المدينة وأهلها، بل كان المهاجرون والأنصار يعملون في الزراعة، أو التجارة، أو الحطب، أو الاستيراد، أو الرعي، أو غير ذلك، وكلهم كعبد الرحمن بن عوف تجارة وحذقًا؛ حتى نتج عن ذلك نشاط اقتصادي واسع النطاق، وكان الأنباط[١] يتبادلون السلع والبضائع مع المدينة، فيقدمون بالزيت والدقيق وغيرها من الأطعمة كما في قصة كعب بن مالك[٢].

وفيها : فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟

---

(1) الأنباط: قوم يسكنون الشام نسبوا إلى النبط وهو: استخراج الماء. النهاية (٥/٧).

(2) يشير إلى قصة كعب بن مالك – رضي الله عنه – المشهورة حين تخلَّف عن غزوة تبوك، فأرسل إليه ملك غسان ليلحق به حين بلغه هَجْر النبي ﷺ له، وأرسل الرسالة مع نبطي من أهل الشام والقصة أخرجها البخـــاري (٤٤١٨) ومســـلم (٢٧٦٩) من حديث كعب رضي الله عنه.

وهكذا التابعون لهم باحسان يتواصون بالعمل في التجارة، لا نقول: أهل الدنيا، ولا نقول: أهل المال، ولا نقول: أهل السلطة؛ وإنما نقول: أهل العلم، وأهل الدعوة، وأهل الجهاد يتواصون بذلك.

فهذا **أبو قلابة** ﷺ يوصي أيوبًا السختياني، فيقول له: "الزم السوق فإن الغنى من العافية"[١]، وفي رواية (فإن أعظم العافية الغني عن الناس).

وهذا **إسحاق بن يسار** يمر بالبزازين الذين يبيعون الثياب فيقول لهم: "يا معشر البزازين الزموا تجارتكم، فإن أباكم إبراهيم عليه السلام كان بزازًا"[٢] يعني يبيع الثياب.

وقال سعيد بن المسيب – رحمه الله– (لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويقضي به ذمامه، وإن مات تركه ميراثاً لمن بعده)[٣]

(1) أخرجه عبد الرزاق (٤٦٥/١١) وابن أبي شيبة (١٩/٧).
(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦٣/٩).
(3) الحث على التجارة للخلال (٨٠).

وهذا **شعبة** ﷺ –وهو من أتباع التابعين– يقول لتلاميذه يربيهم بالعلم، ويربيهم على العبادة، ويربيهم على الخير والجهاد، ومن كمال التربية حثه لهم على التجارة– : "الزموا السوق فإنما أنا عيال على إخوتي"[١].

وقال رجل **للإمام أحمد بن حنبل –رحمه الله–**: "إني رجل غني وذو كفاية، فماذا ترى لي؟" قال له الإمام أحمد: "الزم السوق تصل به الرحم وتعود به على عيالك"[٢] وكان يأمر بالسوق ويقول :(ما أحسن الاستغناء عن الناس)[٣].

أما **سفيان الثوري –رحمه الله–** فيقول لك: "عليك بعمل الأبطال، عليك بعمل الأبطال" ونحن نعرف أن من البطولة: خوض المعارك، وقول كلمة الحق، والموت في سبيل الله، ولكن سفيان يقدم تعريفًا جديدًا للبطولة والأبطال، يقول: "عليك بعمل

(1) أخرجه ابن الجعد في الجعديات (١٨/١) وانظر تاريخ بغداد (٢٥٧/٩).
(2) الحث على التجارة للخلال (٢٦).
(3) الحث على التجارة للخلال (٢٧).

الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق على العيال"[1].

* * *

(1) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٣٨١)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/٩٨).

الفصل الثاني

أثرياء من الصحابة

لعل من المناسب هنا أن نعرض كشفًا بحساب بعض العشرة المبشرين بالجنة؛ لندرك أن جمع المال لا يناقض الزهد، ولا الطمع فيما عند الله. فهؤلاء الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة كان أكثرهم من أصحاب الأموال الضخمة ومن أغنى أغنياء المسلمين.

فهذا **أبو بكر** رضي الله عنه تقول عنه عائشة رضي الله عنها: "كان أتجر قريش حتى دخل في الإمارة"[1]، فكان – رضي الله عنه- تاجرًا حتى دخل في الإمارة فافتقر وليس العكس، فكان يشتغل بالبز يتاجر به، فيذهب إلى الشام وغيرها ويضرب في الأسواق فلما تولى الخلافة أصبح غادياً إلى السوق وعلى رأسه أثواب يتجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فقالا له : كيف تصنع هذا، وقد وليت أمر المسلمين؟

(1) الحث على التجارة للخلال (٩١)، وأخرج نحوه البغوي في معجم الصحابة، وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (٢/١٤٥) عن عائشة رضي الله عنها.

قال : فمن أين أطعم عيالي .

قالوا : نفرض لك، ففرضوا له كل يوم شطر شاة[١] فكانت كل مخصصات الخليفة نصف شاة يومياً، ولذا قال أبو بكر – بعد ذلك – مبيناً أن ما يأخذه من بيت مال المسلمين إنما هو مقابل أموال ضخمة كان يكسبها من التجارة، حتى إنه كان من أغنياء قريش قبل أن يلي أمر الخلافة فقال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة أهلي، وشغلت بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال وأحترف للمسلمين فيه[٢].

أما عمر فقد سبق ذكر خبره مع أبي موسى الأشعري في حديث الاستئذان وأنه قال : ألهاني الصَّفْقُ بالأسواق، فكان– رضي الله عنه – ذا تجارةٍ وضرب في السوق ولما تُوفِّي كان نصيب كل ابن من أبنائه نحواً من مائة ألف[٣]، ولما سُئل الحسن البصري : هل أوصى عمر بن الخطاب بثلث ماله أربعين ألفاً؟،

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٨٤/٣) بسند مرسل رجاله ثقات.

(٢) البخاري (٢٠٧٠).

(١) جامع بيان العلم وفضله ١٣/٢.

قال: لا – والله – فماله كان أيسر من أن يكون ثلثه أربعين ألفاً ولكن لعله أوصى بأربعين ألفاً فأجازوها[١]، وكان – رضي الله عنه– شديد الحث على التجارة والصفق في الأسواق والضرب في الأرض لابتغاء فضل الله، وقد ثبت عنه بأسانيد صحاح أنه قال كتب عليكم ثلاثة أسفار: الحج، والعمرة، والرجل يأخذ ماله يسعى في وجه من هذه الوجوه يبتغي من فضل الله عز وجل، فإن فيه عبادة والتصديق – يعني الصدقة – والذي نفسي بيده لأن أموت في وجه من هذه الوجوه وأنا بين شعبتي رحلي أطلب بمالي في الأرض من فضل الله كفاف وجهي أحب إلي من أن أموت على فراشي، وإن قلت: إنها شهادة لرأيت أنها شهادة ثم تلى "**وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله**"[الآية ٢٠ من سورة المزمل] [٢].

وأما **عثمان بن عفان** ﷺ: فلنعرف مقدار المال الذي كان يملكه ﷺ ننظر إلى شيء من إنفاقه في سبيل الله.

---

(١) جامع العلم وفضله ١٣/٢.

(٢) الحث على التجارة الخلال ١٠١.

روى الترمذي عن عبد الرحمن بن سمرة قال: "جاء عثمان ﷺ يوم العسرة إلى النبي ﷺ بألف دينار- وذلك حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة - فنثرها عثمان في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يُقلِّبها في حجْرِه ويقول: "ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم"[1]. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وعن عبد الرحمن بن خباب ﷺ، قال: "لما دعا النبي ﷺ إلى تجهيز جيش العسرة قال عثمان: يا رسول الله، عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم دعا النبي ﷺ إلى المشاركة فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم دعا النبي ﷺ ثالثة فقال: يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها"[2]. فهذا إنفاق

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٦٣٠)، والترمذي (٣٧٠١)، والحاكم في المستدرك (١٠٢/٣)، والطبراني في الأوسط (٩٢٢٢)، وقال الترمذي : حديث حسن غريب. اهــ وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

(2) أخرجه الترمذي (٣٧٠٠) من حديث عبد الرحمن بن خباب وقال الترمذي: حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة اهــ. في إسناده فرقد بن أبي طلحة انفرد بالرواية عنه الوليد بن أبي هشام، وقال علي بن المديني: لا أعرفه،

عثمان في مناسبة واحدة، فما بالك بمجموع ما أنفقه طيلة عمره ؟ وما بالك بمجموع أموال الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ؟

أما **طلحة بن عبيد الله** ﷺ فقد: كان كريمًا جوادًا حتى إنه سُمِّي بــ"طلحة الفيَّاض"، وكانت غلّته يوميًا ألفَ دينار. هذا ربحه يوميا في مثل ذلك العصر الذي لم يكن يعرف الملايين والمليارات.

ولما مات طلحة ﷺ، سأل معاوية بن أبي سفيان ﷺ ولده موسى بن طلحة، فقال لــه: "كم ترك أبوك؟" قال له: "ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم هذا من الفضة، أما من الذهب فخلف مائتي ألف دينار"، فقال له معاوية ﷺ: "عاش حميدا

وقال ابن حجر في التقريب : مجهول ولكن يشهد له الحديث قبله وأحاديث أخرى انظرها في تحقيق المسند ٣٤، ٢٣٢.

والحِلْس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج، والجمع أَحْلاس وحُلُوس وحِلَسَة.

أما القَتَب فهو: الرحل الصغير على قدر سنام البعير، والجمع أَقْتَاب.

سخيا شريفًا، ومات شهيدًا"[١].

والزبير بن العوام رضي الله عنه، كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فلا يدخل بيته من هذا الخراج شيء[٢]، ولما مات كان ولده عبد الله بن الزبير ينادي في مواسم الحج -لمدة أربع سنوات -: "من كان له على الزبير دين أو شيء فليأتنا فلنقضه"، فلما مضت السنوات الأربع قسم ميراثه على ورثته.

فكم كان مال الزبير رضي الله عنه، لقد بلغ ميراثه خمسون مليوناً ومئتا ألف درهم وهذا بعد قضاء الديون، ورفع الثلث الذى هو وصية الزبير – رضي الله عنه– .

وهذا **عبد الرحمن بن عوف – وهو صاحب مقولة دلوني على سوق المدينة–** رضي الله عنه باع لعثمان أرضًا له بأربعين ألف دينار، وقسم ذلك بين فقراء بني زهرة وفقراء المهاجرين وأمهات

(1) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٢٢/٣) عن موسى بن طلحة من طريق الواقدي.

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٨).

المؤمنين[١]. وكان محظوظًا في التجارة، وكسب مالاً كثيرًا، وخلَّف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومئة فرس ومليونين ونصف نقداً[٢].

وهكذا **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه كان من الأغنياء المشتغلين بالزراعة، ولما حصلت الفتنة ترك البلاد وذهب إلى مزرعته يشتغل فيها، وأعرض عن الناس، قالت ابنته عائشة : أرسل أبي إلى مروان بزكاتهِ خمسة آلاف، وترك يوم مات مئتي ألفٍ وخمسين ألفاً[٣].

* * *

(1) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٣٢/٣) وأحمد في فضائل الصحابة (١٢٤٩)، وفي المسند (٢٤٧٦٨١،٢٥٠٧٦) وابن أبي عاصم في الزهد ص(١٩٨) وإسناده صحيح.

(2) السير ٩١/١.

(3) السير ١٢٣/١.

الفصل الثالث

المعنى الحقيقي للزهد

قد يقول قائل: إذًا أين الزهد ؟ وقد يختلط الأمر على البعض، فيرون أن الزهد، أو الاشتغال بالدعوة، أو العمل في الجهاد، أو طلب العلم، أو حفظ القرآن لا يتلاءم مع الصفق في التجارة والعمل في الأسواق، وهذا خطأ في فهم الزهد الحقيقي.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد، والحاكم، وابن حبان وغيرهم بسند صحيح أن النبي ﷺ عندما دعا عمرو بن العاص أولَّ ما أسلم، فقال له: **"يا عمرو خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني"** قال عمرو: "فأتيته ﷺ وهو يتوضأ فصعَّد فيَّ النظرَ ثم طأطأه، فقال: **إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك تسلم وتغنم وأَزْعَبُ**(1) **لك من المال زَعْبة صالحة**"، فقال عمرو: "يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال؛ ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع

(1) أزعب لك: أي أعطيك دفعة من المال.

رسول الله ﷺ" فقال له النبي ﷺ: **"نِعمَّا بالمال الصالح للرجل الصالح"**(1).

وقد أثنى الله تعالى على نــاس في القرآن، فقال ســـبحانه: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور:٣٧] إذ هم يتاجرون ويبيعون ويشترون، ولكن لا يلهيهم ذلك عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فكان الواحد منهم إذا وضع الشيء في كفة الميزان، وأراد أن يضع في الكفة الأخرى ما يقابله، ثم سمع المؤذن ترك الميزان وذهب إلى الصلاة، ولا يقول: أَزِنُ هذه السلعة أو هذه البضاعة ثم أذهب؛ بل يترك ذلك ويصلي، فأثنى الله عليهم بذلك. فهذا هو الضابط، أن الإنسان لا يشتغل عن الدين بالدنيا، ولا تلهيه التجارة والبيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدعوة وطلب العلم والجهاد، ولكن يعمل هذا وهذا، ويوظف ما أتاه الله

(1) أخرجه أحمد (١٧٣٠٩)، والبخــاري فــي الأدب المفرد (٢٩٩)، والحاكــم (٢١٣٠)، (٢٩٢٦)، وابن حبان (٣٢١٠)، وإسناده صحيح، قال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم، وقال مرة: على شرطهما.

في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧].

قال قتادة : "كان القوم يتبايعون ويتجرون، ولكنهم إذا نابَهُم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع حتى يؤدوه إلى الله"[١]. إن اشتغال صاحب الأمانة والديانة في الأسواق، وفي التجارة والبيع والشراء، وفي سائر المؤسسات المالية في بلاد الإسلام حماية من الغش والتزوير والكذب، وحماية من استغلال بساطة الناس وطيبتهم، وحماية من المتاجرة في الحرام؛ لأن المناشط التجارية عندما تكون في أيدي الخيِّرين فإنهم سيديرونها بالطريقة الشرعية، متجنبين الحرام في مادة التجارة وطريقة التعامل، وبالعكس من ذلك عندما تقع في أيدي من لا خلاق لهم، فلا تسَلْ عن التجارة ولا المعاملات وسيكون الربح هو المسير الوحيد للعملية التجارية.

وقد رُوي أن النبي ﷺ كان يدعو -كما في حديث أم

(1) أخرجه البخاري، معلقاً، في البيوع باب التجارة في البز.

سلمة- بعد صلاة الفجر فيقول: **"اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وعملاً متقبلاً، ورزقًا طيبًا"**[١]، والحديث رواه أحمد والنسائي في عمل اليوم والليلة، والطبراني وعبد الرزاق.

إن الزهد ليس هو الفقر، ولا هو أن تُعرِض عنك الدنيا فتُعرِضَ عنها، ولكن الزهد ألا يكون المال في قلبك، ولو كان في يدك؛ ولهذا قال الإمام أحمد وغيره من السلف: "الزهد أن يكون عندك المال فلا يستبد بك الحزن إن نقص، ولا يستبد بك الفرح إن زاد"، بل إن زاد المال أو نقص فالأمر عندك سواء، وهؤلاء هم كبار الزهاد من الصحابة ﷺ وقد رأيت أموالهم.

فهل رأيتهم جزعوا على فائت من الدنيا ؟ كلا؛ بل كان الواحد منهم وهو على فراش الموت يقول: "غدًا ألقى الأحبة محمدًا ﷺ وصحبه"[٢].

(1) أخرجه عبد الرزاق (٣١٩١)، وأحمد (٢٥٩٨٢) وابن ماجه (٩٢٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٢) والطبراني في الكبير (٦٨٥) والصغير (٧٣٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها وحسّنه الحافظ ابن حجر في نتائج الافكار ٣١٣/٢.

(٢) انظر السير (٣٥٩/١) ترجمة بلال – رضي الله عنه – .

فهم ما أسفوا على الدنيا كلها يوم زالت؛ بل كانوا يخوضون المعارك ويتعرضون للقتل رجاء نيل الشهادة في سبيل الله، وما ألهتهم تلك الأموال عن المجاهدة، وهذا هو سر العظمة والنبوغ والكمال الذي وُجِدَ في ذلك الجيل ولم يوجد فيمن بعدهم إلا قليلاً.

إن ما يسمى بالزهد قد يكون في أحيان كثيرة مهرباً من العمل الجاد، وتبريراً للكسل وحب الراحة والرغبة عن العمل.

وكيف نسمي زاهداً من يترك الكسب الحلال الطيب ثم يتعرض للناس لينال زكواتهم وأعطياتهم، أو يظل مستشرفاً يرقب بِرَّهم وإحسانهم ؟

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر — رحمه الله - (إن المال المذموم عند أهل العلم هو المطلوب من غير وجهه، والمأخوذ من غير حلِّه، والآثار الواردة بذم المال نحو قول رسول الله ﷺ "الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وإنهما مهلكاكم". ونحو قوله عليه الصلاة والسلام "ماذئبان جائعان أُرسِلا في حظيرة غنم

بأفسدَ لها من حُبِّ المرء للمال والشرف" وما كان معناه من حديثه ﷺ ، ونحو قول عمر بن الخطاب: "ما فتح الله الدينار والدرهم والذهب والفضة على قوم إلا سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم" ونحو هذا مما روي عنه وعن غيره من السلف في هذا المعنى فوجه ذلك كله عند أهل العلم والفهم في المال المكتسب من الوجوه التي حرمها الله ولم يُبِحْها وفي كل مال لم يطع اللهَ جامِعُهُ في كسبه، وعصى ربه من أجله وبسببه، واستعان به على معصية الله وغضبه، ولم يؤدِّ حقَّ الله وفرائضه فيه ومنه، فذلك هو المال المذموم والمكسب المشؤوم، وأما إذا كان المال مكتسباً من وجه ما أباح الله، وتأدت منه حقوقه، وتقرب فيه إليه بالإنفاق في سبيله ومرضاته فذلك المال محمود ممدوح كاسبه ومنفقه لا خلاف بين العلماء في ذلك، ولا يخالف فيه إلا من جهل أمر الله، وقد أثنى الله على إنفاق المال في غير آية، ومحال أن ينفق مالا يكتسب . قال الله عز وجل (**الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى**) الآية، وقال (**ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية**) وقال (**لا يستوي منكم من أنفق**

من قبل الفتح وقاتل) وقال (**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم)** الآية . وقال (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقال (يمحق الله الربا ويربي الصدقات)** وقال (**من ذا الذي يُقْرِضُ الله قرضاً حسنا فيضاعفه له)** الآية ، وما في القرآن من هذا المعنى كثير جداً، وكذلك السنن الصحاح كلها تنطق بهذا المعنى، وهو الثابت عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين قال ﷺ "كل معروف صدقه" وقال "اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المعطية والسفلى السائلة" وقال لسعد ابن أبي وقاص "لأن تدَعَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعَهم عالةً يتكفَّفون الناس وإنَّك لن تنفق نفقة إلا أُجِرْتَ فيها" الحديث ، وقال ﷺ "أفضل درهم درهمٌ تنفقه على عيالك (والآثار في هذا متواترة جداً)[١].

وقال ابن الجوزي في "صيد الخاطر" : (ليس في الدنيا أنفعُ للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضم إلى العلم حيز الكمال، وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/١١.

فاحتاجو إلى ما لابدّ منه، وقل الصبر فدخلوا مداخل شانتهم وإن تأولوا فيها، إلا أن غيرها كان أحسن لهم .

وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من المعروفين بالظلم، وهؤلاء، وإن كانوا سلكوا طريقاً من التأويل فانهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر مما نالوا من الدنيا.

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم. فمنهم من يداهن ويرائي، ومنهم من يمدح بما لا يجوز، ومنهم من يسكت عن منكرات إلى غير ذلك من المداهنات، وسببها الفقر، فعلمنا أن كمال العز وبعد الرياء إنما يكون في البعد عن العمال الظلمة، و لم نر من صح له هذا إلا في أحد رجلين:

أما من كان له مال، كسعيد بن المسيب كان يتجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري كانت له بضائع، وابن المبارك.

وأما من كان شديد الصبر قنوعاً بما رزق وإن لم يكفِهْ –

كبشر الحافي ، وأحمد بن حنبل- ومتى لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه. فعليك يا طالب العلم بالاجتهاد في جمع المال للغنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينك. فما رأينا في الأغلب منافقاً في التدين والتزهد والتخشع، ولا آفة طرأت على عالم إلا بحبّ الدنيا، وغالب ذلك الفقر) أ.هـــ.

* * *

الفصل الرابع

من فوائد التجارة

- **الاستغناء عن الناس:**

وهو باب عظيم، فإن العبد يسأل ربه أبدًا ألا تكون حاجته عند الناس؛ بل أن يغنيه عن خلقه أو عن شرار خلقه.

وعند الطبراني أن النبي ﷺ قال: **"عِزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس"**(١)، وفي حديث آخر رواه البزار والطبراني وصحّحه العراقي أن النبي ﷺ قال: **"استغْنِ عن الناس ولو بشوْص**٢ **السواك"**(٣).

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٤١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١٢٢٣١) وقال: إسناده حسن (١٢٢٣).

(٢) شوْص : شاص فاهُ بالسواك يشوصه شوصاً : غسَلَه ونظَّفه.

(3) رواه الطبراني في الكبير (١٢٢٥٧)، والبزار (كما في مجمع الزوائد) وذكره الهيثمي في المجمع (٩٤/٣) وقال رجاله ثقات. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: إسناده جيد.

ولو سئل الناسُ الترابَ لأوشكوا

إذا قيل: هاتوا أن يملّوا ويمنعــوا

ويروى أن عمر ﷺ مرَّ بمحمد بن مسلمة وهو يغرس واديًا فقال: "ما تصنع يا بن مسلمة؟" قال: "ما ترى، أستغني عن الناس، كما قال صاحبكم أحيحة بن الجلاح:

استغن أو مت فلا يغررك ذو نشبٍ

من ابن عم ولا عــم ولا خــــالِ

إني أظل على الــزوراء أعْمُرها

إن الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ"

وعن حماد بن زيد قال: "قال لي أيوب : الزم سوقك، فإنــك لا تزال كريمًا على إخوانك ما لم تحتج إليهم"(1). فالناس يحبونك إذا كنت غنيًا، ولو طلبتهم ثم طلبتهم لثقل ذلك عليهم، ولو كانوا أقرباء، فلا تغترَّ بذي المال ولو كان قريبًا، فضلاً عن أن يكون بعيدًا، وقد قال النبي ﷺ كما في حديث حكيم بن

(1) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٢٨٦).

حزام: "اليد العليا خير من اليد السفلى"(1) فاليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي الآخذة أو المتعرضة للسؤال. إن في السؤال والتعرض للناس وقبول أعطياتهم مذلة وإراقة لماء الوجه، وقد كان كثير من السلف يرد ذلك، ومن أشهر من كان له في ذلك قدم راسخة معروفة الإمام أحمد -رحمه الله-، فقد كان يرد الأعطيات التي كان يبعث بها أصحابه إليه، ويشتغل هو إما أن ينسخ كتابًا، أو يشتغل بشيء، أو يبيع شيئًا، أو ما أشبه ذلك، أو يأجر من نفسه، حتى يكسب المال الذي يستغني به عن الناس، ومع ذلك حصل من العلم والعبادة، والصبر والجهاد والبلاء، والسابقة في الإسلام ما لا يخفى أمره.

- **الاستغناء عن الأموال العامة:**

فإنها أموال عامة المسلمين تتعلق بها نفس كل واحد منهم، والظلم فيها ظلم عظيم؛ إذ لا يتعلق بشخص، بل هو ظلم للأمة كلها، ومن أخذ منها قليلاً أو كثيرًا بغير حق، فإن الأمة كلها

(1) أخرجه البخاري (١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٣، ١٠٤٣) من حديث حكيم بن حزام ﷺ.

يوم القيامة خُصَماؤه أمام الله ﷻ في يوم لا درهم فيه ولا دينار ولا متاع؛ وإنما هي الحسنات والسيئات، فما بالك بإنسان تكون الأمة كلها خصمًا له؟ فمن أخذ هذا المال بغير حق، فإن ذلك من الغلول المشدد في التحذير منه والنهي عنه؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١]. ولا شك أن من الغلول أخذَ شيءٍ من الأموال العامة من غير وجه صحيح، وفي الحديث الطويل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغُلُول فعظمهُ وعظم أمره، ثم قال : "لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة، على رقبته بعيرٌ له رُغاءٌ، يقول : يارسول الله ! أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتُك، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يومَ القيامة، على رقبته فرس له حمحمةٌ، فيقول: يا رسول الله ! أغثني، فأقولُ : لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُكَ، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة، على رقبته شاةٌ لها ثُغاءٌ، يقول : يا رسول الله ! أغثني، فأقولُ : لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك، لا ألفينَّ أحدكم يجيءُ يوم القيامة، على رقبته نفس لها صياحٌ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني، فأقول: لا أملك لك

شيئاً، قد أبلغتُك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته رقاعٌ تخفقُ، فيقولُ : يا رسول الله ! أغثني، فأقولُ : لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُكَ، لا ألفيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته صامتٌ، فيقول : يا رسول الله ! أغثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك"[١]. وهكذا بالنسبة لطلبة العلم والدعاة والمصلحين؛ بل وسائر الناس فإن الاستغناء عن الأموال العامة ما أمكن هو الأولى والأفضل.ولذلك قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: "إن عامة من داخل هؤلاء - يعني: الأمراء والسلاطين- إنما دفعه إلى ذلك العيال والحاجة"[٢] فكثرة العيال وشدة الحاجة تجعل الإنسان يتخلى عن بعض المبادئ التي يقرها ويقول بها، ويتخلى عن بعض المثاليات التي ربما دعا إليها يومًا من الأيام، لكن إذا كان مستغنيًا بما أغناه الله تعالى بكسب يمينه، أو بعرق جبينه فإنه لا يكون مضطرًا إلى ذلك ولا محتاجًا إليه.

❑ الاستغناء عن الوظائف:

---

(1) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).

(2) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٨٠/٦).

الوظائف سواء منها : الحكومية أو القطاع الخاص من العمل الشريف والرزق الحلال الطيب، وبهذه الوظائف قوام أعمال المجتمع وتسيير أمور حياته، فالوزراء والقضاة والمعلمون وأساتذة الجامعات وغيرهم كثير موظفون، ورؤساء الشركات والمهندسون والخبراء فيها موظفون ولكن هذه الوظائف غير متيسرة ولا مناسبة دائماً وإنما يعرض لها عوارض تدعو الموظف للبحث عن بديل فمن ذلك :

أ) قلة الوظائف، فإن الدول تمر بها ظروف تنتج عنها قلة الوظائف سواء في القطاع العام أو الخاص، فما لم يكن الشاب يملك اللياقة لخوض الأعمال التجارية وتفتيق فرص العمل فإنه سيضع خداً على كف ينتظر التعيين الذي لا يدري كم يطول انتظاره؟

ب) عدم موائمة هذه الوظائف لطاقة الشخص وقدراته، فتجد الشاب المتوقد طاقةً وحماساً مصفوداً في وظيفة رتيبة لا تستهلك من طاقته وحماسه إلا القليل، وتجد الأديب المبدع في وظيفة روتينيه تئد إبداعه، وتطفيء لموعه، وكم دفنت في

مكاتب الموظفين من طاقات، وحنطت على المكاتب قدرات ومواهب، فإذا كان لدى الشاب مجالات للعمل الحر انطلق فيها وأعطى لطاقته ومواهبه حريتها ومداها الرحب.

يقول الأستاذ/ أحمد حسن الزيات في مقالة جميلة يأسى فيها على الموظفين من هذا النوع الذين حبسوا في مكاتب هي قبور المواهب والإبداع (إن أولى الناس بالرثاء لأولئك الذين سُلبوا جوهرة الحياة وحرية العيش، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم، مغلولين عن الحركة، مكمومين عن الشكوى، يستقطرون الرزق من شق القلم ولا يصيبون من أجورهم سداداً من عوز ولا غنى من فاقة.

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاماً ويستقبل عاماً حتى يأخذ بمخنق الستين وكأن لم يحدث في العالم شيء! يختلف الليل والنهار، وتتبدل الأحوال والأطوار، وهو على مكتبه الضيق في غرفته المظلمة، يعمل ساعة ويجترُّ أخرى، دون أن يشعر بدوران الفلك، ولا أن يفطن إلى حركات العالم! يدخل الديوان وهو طرير الشارب، أثيث

الجمة، ريان من الشباب والقوة والأمل، ثم يودعه وهو مخدد الوجه، أشيب الشعر، متداعي الجسم، فقير من المنى والذكريات والمال، لا يصلح إلا أن يكون عموداً في مسجد، أو منضدة في قهوة. وربما أقصدته[1] المنون لانقطاعه بغتة عما ألف من عادة شديدة، وحياة رتيبة، وأعمال واحدة، في ساعات لا تختلف ولا تتبدل.

أيها الموظفون! إن لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب، وإن لخدمة الأمة مواقف غير هذا الموقف الكاذب. فتجافوا بأنفسكم عن هذه المقاعد، فإنها مواطن الذل والملق، ومساكن الفقر والجهل، ومكامن الخمول والموت)[2]

ج) أن راتب هذه الوظائف قد لا يكفي في أحايين كثيرة لتلبية حاجات هذا الموظف الأساسية ولا يوفر له متطلبات الحياة المتزايدة، فيظل يلاحق بقايا الراتب بالديون.

(١) أقصدته المنون : رمته فلا تخطئه .

(٢) الرسالة (١٢ نوفمبر ١٩٣٤) وانظر أيضاً مقالة للشيخ علي الطنطاوي -رَحمه الله- في كتابه مع الناس بعنوان (الوظيفة والموظفون) ص (٦٧) .

إنما راتبُ الموظـــــف دين ... هو للغير مستـــحق الأداء
كم شهورٍ مضت عليه طوالاً ... طول ليل العشاق عند الجفاء
يبتني شاهق القصور ســـواه ... وهو ما عاش ساكن بالكراء
فإذا مات لم يورِّث بنيـــــه ... غير حَرّ الأسى ومُرّ البكاء[1]

فـــإذا مـــا كان لدى الشاب صفقٌ في الأسواق، وتوثبٌ للعمل، ابـــتغى الـــرزق مَظَانَّه، ولم يقعد مغلول اليد يترقب هذا الراتب المكدود المحدود، الذي يقطر عليه من ثقب كسَمِّ الخياط.

- **تحقيق العبادات الماليـــــــــة :**

الإنفاق في سبيل الخير، واصطناع المعروف، والإحسان إلى الناس، وتيسير الأسباب لهم، وإنظار المعسر، والتجاوز عنه كل ذلك مما لا يفعله إلا الأغنياء؛ ولذا جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ يشكون حالهم بالنسبة للأغنياء فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور[2] من الأموال بالدرجات العلى والنعيم

(١) من أبيات للشاعر محمود غنيم.

(٢) الدثور : جمع دَثْرٍ وهو المال الكثير.

المقيم، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فأرشدهم النبي ﷺ إلى التسبيح والتهليل والتكبير أدبار الصلوات وأنهم إذا أخذوا به أدركوا مَنْ سبقهم ولم يدركهم أحدٌ بعدهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ بعد ذلك فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلناه، ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ : (**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**).

فأنتَ ترى ألواناً من العبادات سبق بها أهل الأموال غيرهم وصنوفاً من البر والإحسان لا يستطيعها أهل الكفاف، ومثل ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي كبشة عن النبي ﷺ قال : "إنما الدنيا لأربعة نفر : عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحِمَه، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل . الحديث[1]

وقال أبو إسحاق السبيعي : كانوا — يعني الصحابة — يرون

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٣٢٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

السعة عونا على الدين[1].

❑ **تحقيق خصوصية المجتمع واستقلاله :**

لو نظرنا إلى الحياة كلها وإلى مستوى المجتمع لوجدنا أن مثل ذلك العمل يحقق للمجتمع عبوديات أخرى كثيرة، مثل: الالتزام بالشرع في المأكل والملبس والمشرب والمركب وغير ذلك. فلو أن المسلمين مستقلون بصناعاتهم وبزراعتهم وبتجارتهم وبنوكهم وباقتصادهم، لاستطاعوا أن يجعلوا هذه الأشياء كلها تحقق جانبًا من جوانب العبودية لله: بترك الربا، وأكل كل ما لا يحل في الشرع مثل الأطعمة المحرمة المجلوبة من بلاد كافرة، أو الملابس التي تكون كاشفة للمرأة، أو الملابس التي تربي الصغار على خلاف ما يرضي الله ﷻ، ومثل ذلك ألوان أخرى من أمور الحياة التي يرتفق فيها الجميع، فضلا عن إيجاد الأمن للمجتمع والاكتفاء الذاتي الذي يجعل المجتمع المسلم مستقلاً بذاته غير محتاج إلى الكفار في أموره اليومية، خاصة ونحن نرى الكفار اليوم

(٢) الحث على التجارة للخلال (٧٣).

يستخدمون ما يسمى بمبدأ الحصار الاقتصادي على المسلمين في بعض البلاد. فلو أن المسلمين كانوا مستقلين باقتصادهم وصناعتهم لم يأبهوا بالكفار؛ ولما أمكن لهذه الدول أن تجعلهم تحت طائلة هذا التهديد .

إن مثل هذا الاستقلال بالصناعة والتجارة حماية من الغزو الأجنبي الذي يستخدم كل وسيلة لترويج الفساد والانحلال وتضليل المسلمين عن دينهم، فتجد بعض البضائع فيها نجمة سداسية –شعار اليهود– أو صليب –شعار النصارى–، أو صورة فتاة عارية أو شبه عارية، حتى لعب الأطفال أعدوها بحيث تربي الطفل والطفلة على الاختلاط، وعلى حب النصارى وعلى التعلق بهم، وبعض العادات والطقوس والتقاليد النصرانية أو اليهودية، لم يتركوا شيئًا دق أو جل إلا حرصوا أن يتسللوا من خلاله.

- **التأثير في المجتمع:**

فإن صاحب الديانة والأمانة إذا اشتغل بالتجارة أصبحت قدرته جزءًا مهمًا من المجتمع، فقدرته حينئذ على التأثير كبيرة، فيدعو ويصلح من خلال تجارته وصناعته، ويقيم شرع الله في كل ما يأتي ويذر.

- **الاستقلال في القرار:**

ينبغي أن نعلم أن الأمة التي لا تملك اقتصادها لا تملك قرارها. إن الدول الغربية – أحيانا – تقع رهينة للشركات الكبرى، وقد تصدر قرارات مراعاة للشركات، مع أن هذا القرار لا يخدمها سياسيا، ولكنه يتم بضغوط من شركات التصنيع أو التصدير؛ فتصبح القرارات السياسية رهنًا لإرادة الشركات الكبرى، وهكذا الأمر بالنسبة لمجتمعات المسلمين، فالذي يملك التجارة يؤثر في الناس، ويتحكم في اتجاهاتهم.

ونذِّكر بقصة ثمامة بن أثال الذي أسرته خيل النبي فأسر وربط في سارية المسجد فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام، فلم يسلم

حتى أطلقه النبي ﷺ، فلما أطلقه أسلم وقال للرسول ﷺ -: إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره النبي ﷺ خيراً، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قالوا : صَبَوت[1]، قال : لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا – والله- لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى النبي ﷺ إنك تأمر بصلة الرحم، فكتب النبي إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل إليهم[2].

* * *

(١) أي : خرجت من دينك.

(٢) قصة ثمامة أخرجها البخاري رقم (٤٦٢)، ومسلم رقم (١٧٦٤)، وانظر الفتح، المغازي، باب وفد بني حنيفة.

الفصل الخامس

قواعد عامة

- **التوكل على الله سرُّ النجاح:**

فعليك أن تعلم أن سر النجاح في كل شيء هو أن تتوكل على الله، وتفوض الأمر إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾[الطلاق:٣] ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢]، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم:١١] وقول رسول ﷺ: "**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجَزْ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، بل قل: قدَّر الله وما شاء فعل**"[1]. واعلم أن السبب لا يمنع رزقًا ولا يأتي برزق، وإنما هو أمر

(1) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

جعله الله تعالى وكلف العباد به، وإلا فالإنسان مكتوب له كل شيء حتى رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد[1]، ويدخل في ذلك حسن النية والقصد، بحيث يعلم الله – تعالى – من قلبك أنك إن كسبت المال صرفته في أبواب الخير وسبله وأسبابه، وأنك لن تُشغَل بهذا المال عن طاعة الله تعالى وعبادته والتقرب إليه.

- **الصبر وعدم التعجل:**

فإن بعض الناس يريد أن يصبح تاجرًا بين يوم وليلة؛ بل ربما في ساعة، ثم تراه بعد ذلك قد فشل وأخفق بسبب العجلة: فإما أن يتخفى ويتهرب من وجوه الغرماء الذين يُصبّحونه ويُمسّونه، أو يقضي بقية حياته في السجن، بسبب هذه الديون التي ركبته.

قد يدرك المتأني بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

ومن الصبر ألا يغتر الإنسان بربحه؛ فيندفع أكثر مما هو مطلوب، ومن الصبر ألا يغير الإنسان عمله الذي تعب في إعداده بسرعة، فأنت ترى بعض الناس وقد أثَّث مكانًا وجهّزه، وأعدّه

(1) أخرجه مسلم (٢٦٤٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وتعب فيه، وبذل كل ما لديه، فإذا عمل فيه فترة قال: هذا العمل لا يصلح، ثم تركه فخسر بذلك شيئًا كثيرًا. ومن الصبر أن يدأب الإنسان في العمل ولا يعجل أو يستبطئ الرزق، والعوام يقولون: "إذا غلبوك بالفلوس فاغلبهم بالجلوس"!.

- **الاعتدال في النفقة:** فالكثير من الشباب إذا جاءه بعض المال بذرة في المظاهر بمظهره، والتوسع في الكماليات، فيضيع ماله بهذا السبب ولا يجتمع عنده ما ينتفع به؛ ولذلك قال المتلمِّس:

قليلُ المالِ تُصْلِحهُ فيبقَـــى
ولا يبقَى الكثيرُ مع الفساد!
وحِفْظ المالِ أيسرُ مِن بغاه
وسيرٌ في البلادِ بغيـــر زادِ

إن الشاب ربما كسب في صفقة، فجعل هذا المكسب في سيارة فارهة، ثم كسب في ثانية فجعلها في بيت ضخم، ثم كسب في أخرى فجعلها في المناسبات والولائم، وأحيانا في الأسواق والمطاعم والمتاجر وغيرها، حتى ينتهي ما عنده وتركبه الديون.

فالاقتصاد سر من أسرار النجاح.

- **اغتنام الفرص:**

فإن الفرص تسنح ثم تذهب، ويقول أحد الحكماء: إن الثروات تنشأ من الفرص التي أتيحت لكثيرين، ولكن رجلاً واحدًا هو الذي رأى هذه الفرص واستطاع أن يغتنمها، فعلى الإنسان أن يكون قناصًا للفرص يغتنمها، وذلك يتطلب من الإنسان يقظة وجهداً وعناية ومشاركة ومجالسة، ويتطلب منه أيضا مشورة لمن سبقوه في هذا المضمار، بحيث يكتشف الفرص ويغتنمها.

وعليه – أيضا – أن يدرك أن الفرص تتطلب عملاً؛ ولذلك يقول المثل الإنجليزي: الفرصة تأتي متنكرة في ثياب العمل الشاق، يعني: تتطلب الفرصة منك مرابطة واجتهاد ويقظة ومشاورة وجهدًا كبيرًا؛ بل على الإنسان إذا لم يجد الفرصة أن يسعى إلى إيجاد الفرصة واصطناعها؛ ولذلك قال أحدهم: الرجل الناجح لا ينتظر الفرصة بل يسعى في إيجادها، فقد يستطيع الإنسان أن يغتنم بعض الفرص أو يستفيد من بعض الإمكانيات المتاحة الموجودة التي لم يتفطن إليها من قبله، إن النزول للسوق حتى ولو بدون مال يطرح كثيرا من الفرص للإنسان، وعلى العموم فعلى الإنسان أن يبذل وسعه، وليس عليه أن تتم النتيجة:

لأمر عليهم أن تَتِم صدورُه
وليس عليهم أن تتمَ عواقبُهُ

وقول الآخر:

عليَّ طِلابُ العزِّ من مستقره
ولا عيبَ لي إن خالفتني المقادرُ

- **التعامل بالأخلاق الشرعية:**

وهذه ضرورة لابد منها، فإننا حينما نندبُك إلى أن تنـــزل للسوق فإننا نريدك أن تكون نموذجًا للمؤمن الصادق، الذي لا يغير المال من أخلاقه ودينه شيئًا، ولا يستفزه إلى ارتكاب ما حرم الله. فالتاجر المتدين يجب أن يكون متميزًا في أقواله وأعماله، وشرف الكلمة التي يقولها، والصدق في كل شيء، وأن يعلم

الناس منه أنه نموذج لذلك. وكثير من الناس قد يتحدثون عن ذلك، لكن أمام رنين الدرهم والدينار تذوب كثير من الأخلاقيات والقواعد الشرعية. فالصدق في الكلام، و الأمانة في المال، وعدم الحسد للآخرين على ما رزقهم الله ﷻ، وعدم التبرم وعدم الضيق بما قدر على الإنسان هذا كله من الأخلاق التي ينبغي أن يتعامل بها التاجر المسلم.

بل لا تنظر إلى جانب الربح بقدر ما تنظر إلى الجانب التربوي والجانب التوجيهي، ليس على نطاقك كفرد، لكن على نطاق المجتمع، وعندما كان المسلمون يشيدون مسجدهم في المدينة المنورة ويحملون اللِّبْن ويقولون:

اللهم إن العيش عيش الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة(1)

ويحملون اللبن على أكتافهم وهم ينشدون هذه الأناشيد،

(1) انظر صحيح البخاري (٣٩٠٦)، وانظر تفاصيل بناء مسجده ﷺ في السيرة النبوية لابن هشام (٤٩٦/١ – ٤٩٧).

والرسول ﷺ بينهم كانوا يقدمون للدنيا درساً في الهمة والجد والعمل. يقول مالك بن نبي –رحمه الله–: "لو نظرت إلى رقعة المسجد ببساطتها وقلة شأنها لربما ابتسمت، لكن أليس هنالك تلقَّى بنَّاؤ الحضارة دروس الجد والعمل؟" بلى، أولئك الذين كانوا يبنون المسجد بالأمس تلقوا دروس العمل والجد، فلا مكان عندهم للقعود والكسل ولا للقيل والقال؛ بل دأبهم العمل الصالح الذي يرضي الله ﷻ، ويقيم الحياة الدنيا على أساس من الدين والشريعة الربانية؛ ولذلك كان بناة المسجد هم بناة الحضارة في كل مكان، وهم قادة الإنسانية، تحولوا من رعاة غنم إلى قادة أمم ! وما ذاك إلا أثر من آثار التربية النبوية المباركة.

- **تجنُّب المعصية :**

فإن المعصية من أهم أسباب حرمان العبد من الرزق؛ ولهذا قال النبي ﷺ في حديث ثوبان، الذي رواه أحمد وابن ماجة والحاكم: "**إن العبد ليحرم الرزق بخطيئةٍ يعملها**"(1).

(1) أخرجه أحمد (٢١٨٨١، ٢١٩٣٢) وابن ماجه (٩٠) والحاكم (١٨١٤) من حديث ثوبان ﷺ . وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد أ هـــ. في إسناده عبد الله

عدم الانشغال بالتجارة عن العبادة:

ونتوج بها تلك القواعد، فينبغي ألا تشغلك التجارة ولا الصَّفْق في الأسواق عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدعوة وطلب العلم والجهاد، بل عليك بالاعتدال في ذلك كله وأن تكون أسوة حسنة، فإنه استقر في أذهان بعضهم أن الاشتغال بالتجارة يعني الإعراض عن الآخرة، حتى إننا لو رأينا واحدًا من أصحابنا يشتغل بالتجارة قلنا : إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد تغيّر، فما الخطب؟

إن شدة الرقابة على النفس من أهم ما ينبغي السعي إليه والحرص عليه، حتى لا يتحول الإنسان إلى عبد للدنيا يركض وراءها، لكنَّ ذلك لا يكون مبرراً للقعود عن العمل والتثاقل عن الكسب ولكن تجارة بتعبد، وكسب بإنفاق، وثروة بنزاهة.

بن أبي الجعد وهو مجهول لكن قال البوصيرى : سألت شيخاً أبا الفضل العراقي عن هذا الحديث فقال : هذا حديث حسن.

الفهرس